صيحة الشاعر

كلمة رئيس تحرير المقتطف

في حفلة ذكرى حافظ ابراهيم

في مثل هذا الحفل التذكاري، تفيض النفوس أسى، لأن الكائن الذي كان يملأ المحافل بوجوده نبلاً، أو يبعث القوة والحركة في ساعة الضعف والتهور، أو يفري الظلمة ويجلو القتام بطرفه المشرق، قد طوته الارض

أما انا فأشد حزني على نفسي لانه أتيح لي ان أمتع من نبع صاف فياض، كنت اكتفيت بالوشل

تجود لنا الطبيعة في أوقات هي تختارها، ينبوعاً متدفقاً من ابداعها. فتبعث الى الناس بكون كامل في حيز هيكل انساني، تنبثق قوته من العقل فكراً وعلماً، ومن الشعور بالخير والجمال والحق، شعراً وحكمة، ومن الكمال الخلقي وقاراً وقدوة ومثلاً أعلى يبعث في النفس التي تتسع له، ما يرفعها عن مستوى المعنى الترابي، ويقربها من جوهر الارباب

ثم تسترد الطبيعة هبتها. فتجف ينبوعاً في وادٍ هنا، لتفجره في وادٍ هنالك، وتطفئ مصباحها في قوم لتبدد به غياهب قوم آخرين. وتسكت غريدها في أيك لتجاوب بأصداء صداحه افنان أيك مجاور. فنندب ما فقدت، حاسبين ان ذلك الينبوع الجاف، والمصباح المنطفئ، والصداح الصامت، جديرون بحزننا وأسانا، والحقيقة انما نندب انفسنا لانا لم نعب من الينبوع ما نستقيه، ولم نصطبح، وما نسكر على شدو الغريد

من منا، من منكم، لذات حافظ وصحابه وتلاميذه، لا يتمنى الآن، وقد جف نبعه، لو يعود بنا الزمن ويجمعنا به الاولى، اذ كنا نجالس الى حافظ ونصغي منه الى الجداول، لكي نفوز منه ببدرة كبدرة البحر، او بنكتة كبسمة الربيع؟ من منا من منكم، لا يتوق الآن وقد انطفأ مصباحه أن يلتقي حافظاً كل يوم، ليستشف في عينيه الحلوتين، ألقة الشعر وقد استقرت له أبيات في الليل السابق، على ما يريد ويرضى؟ من منا، من منكم، لا يتحسر الآن وقد سكت صداحه، لانه لم يسمع حافظاً يلقي بيانه، وكأن صوته وهو يلقي ظاهرة من ظاهرات الطبيعة، لا حركة وتر ولهاة، تملأ جوانحك روعة فتحاول ان تتبين سر الروعة فيأخذ عليك الافتتان والاعجاب كل سبيل الا سبيل الاعجاب والافتتان

قد يستطيع الفلكي ان يقيس اجرام الكواكب وابعادها، على عظمتها ومداها،

والطبيعي دقائق الذرات ، على دقتها وتناهيها في الصغر ، والنفسي خفايا العقل وحدود الذكاء ، ولكنني لا أعلم ، ان احداً يستطيع ان يقيس اثر المعلم الصالح في نفس تلميذه ، ولا اثر الصديق المرشد في نفس صديقه ، ولا اثر الشاعر المبدع ، في شعب بأسره ، اذ يوقظ فيه شعوراً كامناً بالعزة ، ورقياً مستكناً الى الكمال

***

قلبوا ديوان حافظ ، تجدوا انه على الرغم من نفحات ندية فيه لم يكن شاعر الطبيعة في مظاهرها الكونية ، يتخذ من شروق الشمس وغروبها ، وتغريد الاطيار وخرير الجداول ، وألوان السماء وتعاقب الفصول وانبساط الصحراء وموسيقى الاجرام ، أوتاراً يعزف عليها انغاماً علوية تتردد اصداؤها في دروب الحياة وعنقود الثريا ، ويكشف لنا في ايقاعه ، نحن اصحاب البصائر القاصرة والعقول المكدودة ، عن رؤى جديدة من الخير والجمال

ومن حسنات حافظ ، انه لم يتصنع الكلف بالطبيعة ، فلم يجر قلمه في ميدانها ، الا في لحظات نادرة من لحظات الالهام ، لان ملكة الشاعر السليمة فيه كبحت جماح التقليد

الا انه كان شاعر طبيعة أخرى لها كالطبيعة الكونية وهاد وسهول وقنن ، وفيها ضياء وقتام ، وتغريد ووجوم ، هي في وهادها وسهولها كرم ولين ، وفي جبالها وقننها شمم وعزم ، وفي ضيائها وتغريدها طرب وظرف ، وفي قتامها ووجومها ألم على مضض وتحفز للوثوب

تلك هي طبيعة النفس المصرية

وقد تميز حافظ ، في جميع ادوار حياته ، بذلك الاحساس المرهف ، الذي يتغلغل في هذه النفس الكريمة ، فيستبطنها ويفنى فيها ، ولاسيما في حالات وجدها ولوعتها ، ثم ينبثق من اغوار الالم مولوداً جديداً ، وقد ارتدى من جزل اللفظ ، وحلو النغم ، رداء الشعر العالي . ولذلك كان حافظ لسان هذه النفس قرابة اربعين سنة من الزمن ، طالما انشد فطرب فكان مزماراً ، وطالما رثى ندوق ووفا فكان لحناً كئيباً وعبرة مائلة ، وطالما ندد وزمجر فأنذر وأثار ، فكان بوقاً مدوياً للكفاح

***

ايها الحفل الكريم ، تجيء على الامم ادوار تنطوي فيها على نفسها ، فتفقد ثقتها بالحياة وتنحدر مناط آمالها من مركب النجم ، الى مستوى التراب ، وتسام جوراً وعدواناً تحس بهما ولكنها لا تستجيب ، ويتراءى لها الحق ماشياً فلا تمزق اللثام والتي عصتاً فلا تستبق اليه الاسنة والرماح ، ثم تدوي فيها صيحة الشاعر فتعصف بالقلب الهادىء كموجة طاغية وبالعقل المطمئن كفتنة مجتاحة وبالارادة الوادعة كاعصار عات . واذا الرماد في الموقد الخامد يتنثر شرراً . واذا الحق الذي كانت تراه ولا يحركها يزحف نحوها كأنه زوبعة من الرمل يدفعها الهبوب ، واذا الامة تنتفض انتفاضة البعث

وقد كان صوت حافظ المدوي في ايام التراخي والجري في اوقات الجامة والتهافت، المحرك بلاغته المستمدة من توهج الشعور، أحد الاصوات التي احدثت هذه الحيوية في نفس الشعب المصري

هذا الاحساس الشعبي الصادق ، هو سر الامتياز في شعر حافظ ، وطد له في دولة الادب عرشاً ، وفي قلوب الشرقيين عامة ، والمصريين خاصة الف عرش وعرش وأيد زعامة مصر الادبية في اقطار الضاد بآيات بينات جرت على الألسن وحفظها الشباب في المدارس وانشدها على المنابر وتغنى بها في الحفلات وما زلت اذكر وقد انقضى ربع قرن من الزمان ان (غادة اليابان) كانت القصيدة العربية الاولى التي حفظتها كاملة مع اترابي ، في لبنان وانا في الحادية عشرة من العمر

***

أدمى قلب حافظ ان يرى أمته تتحكم فيها أيدي الاغراب ، وثارت نخوة الجندي في صدره ، فجعل من قلم الشاعر في يده ، بوقاً من أبواق الكفاح

قصر الدوبارة هل أتاك حديثنا فالشرق ريع له وضج المغرب

***

أحسنوا القتل ان ضننتم بعفو أقصاصاً أردتم أم كيادا
أحسنوا القتل ان ضننتم بعفو أنفوساً أصبتم أم جمادا
ليت شعري أتلك محكمة التفتيش عادت أم عهد نيرون عادا

ان من يوجه الكلام على هذا النحو القوي المستفز ، الى قصر الدوبارة في مستهل هذا القرن لكأنه ينادي القوم الى النزال ، فهو خليق على الاقل ، أن ينبه النفوس المنطوية على ألم من مصب النيل الى منبعه . ان احساسها الباطن جرى على لسان حافظ شعراً بليغاً وشعوراً صادقاً ، في عشرات القصائد التي نظمها في دنشواي وكرومر والاستاذ الامام ومصطفى كامل وسعد زغلول

أنا لا ألوم المستشار اذا تعلل او تصدى
فسبيله ان يستبد وشأننا ان نستعدا

ان شرر الثورة المصرية ، كامنة ومحتدمة، اتصل بنا وألهب نفوسنا أيها السادة ، اذ كنا نقرأ شعر حافظ الملتظي وطنية متألمة ، ونحن احداث في ربى لبنان

الا ان حافظاً أدرك ببصيرة الشاعر النافذة ، وبداهته الملهمة ، ان لا يكتفي بالنفخ في بوق الكفاح ، لان الشعب الذي يناجز خصمه ودهره ، وهو غير متقلد من العلم عدة ،

ومن الخلق العالي والرجولة سلاحاً ، مقتضي عنه بالخيبة . فراح يجاهر قومه بعيوبهم ، باعثاً عن أجنحة الشعر نداءه المصلح ، فكان قلم الشاعر في يديه حافزاً من حوافز الكمال

فهو آنا يؤنب

رجائي في قومي ضعيف كأنه جنان وزير سودته مناصبه
ودائي كداء الدين عز دواؤه وحظي كحظ الشرق نحس كواكبه
فياليت لي وجدان قومي فارتضي حياتي ولا اشقى بما انا طالبه
ينامون تحت الضيم والارض رحبة لمن بات يأبى جانب الذل جانبه

وآنا يطالب بأخذ الاهبة للكفاح :

من رام وصل الشمس حاك خيوطها سبباً الى آماله وتعلقا

وآنا يريد ان ينبه بلاذع السخر :

أروني نصف مكتشف أروني ربع مخترع

ومن العجيب في حافظ ، وهو الذي نشأ نشأة عسكرية وادبية انه كان في طليعة شعراء العربية المتأخرين الذين ادركوا ما للعلم من المقام في الحضارة الحديثة ، وان العلم والاختراع والصناعة ، سبيل الى القوة والسطوة اللتين يريدها لقومه فأكثر من الاشارة الى ذلك في شعره المتأخر ، ولكنني أكاد أؤمن الآن ، بأن من أوتي بصيرة الشاعر وبداهته ، تنجلي له الحقائق في لمحات الالهام ، من دون ان يكد العقل الواعي في دراستها واستيعابها

***

شهد العصر الذي نشأ فيه حافظ وترعرع واستلأت اعطافه رجولة ووطنية وتفتحت في نفسه ازاهير الشعر الندية ، فريقاً من الرجال الرجال ، كانوا ملء العيون والنفوس ، علماً وفضلا وحكمة وقوة . من الاستاذ الامام وجمال الدين والبارودي الى مصطفى كامل وسعد زغلول الى قاسم امين وعلي يوسف وشبلي الشميل واسماعيل صبري ويعقوب صروف والارض اهل السيادة ، عمادها صدق الصالحين وقدوتهم ، وحكمة الملهمين وابداعهم ، هم ينقونها من الادران ، بل ان الحياة لا تعذب ، وقد لا تحتمل الا في صحبتهم او في كنفهم وقد خالط حافظ هذا الرهط الممتاز من الرجال وارتبط بهم بروابط الود والاحترام ثم رأى عقدهم ينتثر فريدة اثر فريدة ، حتى اصبح على قوله .

أو كلما ارسلت مرثية من أدمعي في اثر مرتحل
هاجت بي الاخرى دفين اسى فوصلت بين مدامع المقل

فكان قلم الشاعر في يديه ريشة طالما رسم بها صفحات متألقة متأرجحة ، من تاريخ مصر الحديث ، في الدين والسياسة والعلم والادب . والغالب ان حافظاً كان اجود شعراً ، وأبلغ تصويراً في مراثي أولئك الذين كانت حياتهم وما ترمز الى الوطنية المصرية والاصلاح

الاجتماعي لان هاتين الناحيتين من حياة الشعب كانتا أعلى مكانة في نفسه ، وأجمع لمنابعه ، يثير حديثهما ، فيه تلك الهزة التي لا يكون الشعر بغيرها الا كلاماً موزوناً مقفى

وقد راجعت معظم ما قاله في الرثاء ، فالفيته اجاد ايما اجادة ، في رثائه البارودي ومصطفى كامل والاستاذ الامام وسعد زغلول ومن كان على طرازهم من اقطاب هذه البلاد

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة . فكبر وهلل والق ضيفك جاثيا

. . . . .

هنيئاً لهم فليأمنوا كل صائح فقد اسكت الصوت الذي كان عاليا
ومات الذي احيا الشعور وساقه الى المجد فاستحيا النفوس البواليا

***

ليت سعداً أقام حتى يرانا كيف نعلي على الاساس القبابا
قد كشفنا بهديه كل خاف وحسبنا لكل شيء حسابا
حججج المبطلين تمضي سراعاً مثلما تطلع الكؤوس الحبابا
حين قال (انتهيت) قلنا بدأنا نحمل العبء وحدنا والصعابا

والتمست وطنية حافظ الصادقة ، وترامت الهما وراء الافق المصري ، معتركاً قبل ثلاثين سنة ما زلنا نرمقه بعين الامل ونسعى الى تحقيقه بالتبادل الادبي وتعززه بالرحلة والاجتماع

ان يختلف نسب يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد
(ابو تمام)

فكان قلم الشاعر في يده رابطة من روابط الجوار :

هذي يدي عن بني مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسها العرب

***

ايها الحفل الكريم : اذا اجتمع لامة في قلم شاعر ، بوق للكفاح ، وحافز للكمال ، وصفحة متألقة من التاريخ ، ورابطة قوية من روابط الجوار ، كما اجتمع للامة المصرية الكريمة ، في قلم حافظ ، فقد فازت من الدهر باحدى فرائده ، اذ لا يتاح لكل امة في كل جيل مثل هذه الهبة العلوية

واذا وضعت الحرب اوزارها ، وامتد رواق السلام والطمأنينة ، نجب شاعر جديد ، يحول البوق مزماراً وينتقل من الميادين الى الخمائل . ويبدل بالحان الطرب والرقص انغام الزحف والقتال

ولكننا ايها السادة مع حاجتنا الى شعر الجمال والطمأنينة والطرب على انواعه ، يجب ان نذكر ان الحرب التي شهد حافظ مرحلتها الاولى ، قد انتقلت من ميدان الى ميادين

وانكم يا شعراء مصر لبالغون بأبيات من الشعر ، اذا صدق الشعور ، ما لا نبلغه بعشرات المقالات . فانهضوا لها اذا شئتم ان تكرموا حقاً هذا الراحل الكريم ولكم من ذكره العطر وأثره الحي وتقدير هذه الامة الوفية خير الجزاء

فؤاد صروف